المحاضرة الرابعة: اهتمام المؤرخين الفرنسيين بتاريخ الجزائر خلال القرن19م

أولا:دوافع بحث الفرنسيين في تاريخ الجزائر : انطلق الفرنسيون في كتاباتهم حول تاريخ الجزائر من عدة معطيات أهمها:

-كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة

-كونهم شعب متحضر حكم شعبا متخلفا حسبهم

-كونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم

كل هذه المعطيات قررت نوعا من الحتمية التاريخية عندهم، و حددت منهجهم الذي تطور مع مرور الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين، ولعل تلك المعطيات هي التي مازالت تتحكم في الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم.

اما عن دوافع الفرنسيين الى الاهتمام بالتاريخ الجزائري فهي:

01/الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الاوروبية : وكانت هذه الحضارة تحمل معها في الجزائر كل الادوات التي تساعدها على الغزو الفكري، فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة، والمستشرقين الذين يدعون معرفة الاسلام وتاريخه، والمترجمين الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية الاوروبية او من الذين جاؤوا من الشام ومصر بعد ان ارتبطوا بالحضارة الاوروبية عقب حملة نابليون.

02/ دافع السيطرة والاحتلال: لايمكن ان يتحقق ذلك الا بجمع الاثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها، من اجل ذلك استغل الفرنسيون ايضا ما كتبه الكتاب الجزائريون، ونذكر مثلا ماكتبه (العنتري) عن تاريخ قسنطينة، وماكتبه (محمد بن علي التلمساني) عن علماء وهران وتلمسان، وما ترجمه ونشره (ابن ابي شنب) و(الحفناوي) وغيرهما.

03/الدافع الديني: تم احتلال الجزائر بعد صراع شديد بينها وبين اوروبا المسيحية، دام ثلاثة قرون، والاوروبيون يطلقون على ذلك عهد القرصنة، وهو في الواقع الفصل الثاني من عهد الحروب الصليبية، ولذلك اهتموا بتاريخ الجزائر، اولا لمعرفة اسرار ذلك العهد، وثانيا لتحطيم المعنويات التي قد تحدث تغييرات بعد نجاح الاحتلال، كما اهتموا بالدراسات الاسلامية والطرق الصوفية ورجال الدين ذوي النفوذ الروحي، كما شاركت الكنيسة بواسطة رجال التبشير ووسائلها المعنوية والمادية.

ثانيا:ظاهرة الكتابة التاريخية عند ضباط الجيش الفرنسي

في عهد المؤرخين العسكريين الممتد مابين 1830م الى 1870م، وهو العهد الذي اطلق عليه المؤرخ "ستيفان غزال" اسم المدرسة الجزائرية القديمة في كتابة التاريخ، لان الذين تولو كتابة تاريخ الجزائر الاقتصادي،

السياسي، الاداري، خلال هذا العهد، هم كتاب عسكريون بالمهنة او مترجمون عسكريون، وقد ظلت الادارة الفرنسية في الجزائر عسكرية من 1830 الى 1871، باستثناء بعض المناطق في الجزائر التي ظلت عسكرية الى قيام الثورة التحريرية.

خلال العشر سنوات الاولى من الاحتلال، ظهر كتاب عسكريون امثال (كاريت –بيليسييه – هانوتو– ديلامار..) وغيرهم، وقد شارك هؤلاء في اللجنة العلمية التي انشأت خلال سنة 1837م والتي كونتها وزارة الحربية لاكتشاف الجزائر ومعرفة احوال اهلها السابقين، وهكذا كتب "كاريت" عن القبائل الجزائرية وعن العلاقات الاقتصادية بينها، وكتب "بيليسيي دي رينو" كتابه اخبار الجزائر الذي ارخ فيه للثماني عشرة سنة الاولى من الاحتلال، كما كتب "هانوتو" عن لهجات ونظم الجزائريين، وجمع "دي سلان" الذي ترجم تاريخ "ابن خلدون" وجغرافية "البكري"، وغيرهما، واختص الضابط "بروسلر" بالخط العربي، وقام "فورنيل" بكتابة تاريخ شمال افريقيا في العصور الوسطى، اما "لاكروا" فقد نشر دراسات عن الاستعمار والادارة الرومانية في افريقيا، ومن الكتاب ايضا نجد "بيربروجر"الذي ملأ المجلة الافريقية بمقالاته عن اخبار الجزائر، سواء التي جمعها مباشرة او التي ترجمها عن كتاب مسلمين.

واذا كان هؤلاء قد التفوا حول اللجنة العلمية، فانهم تجمعوا ايضا حول (جمعية قسنطينة للاثار)، و(الجمعية التاريخية الجزائرية) ومجلتيهما، وقد أمدوا هذه المنشأت بالدراسات والمذكرات عن القبائل وزعمائها والطرق والاثار والتواريخ المحلية، اللهجات والنظم والشخصيات السياسية، التي لعبت دورا في تاريخ المقاومة الجزائرية، كالامير عبد القادر، الحاج احمد، بومعزة، بوبغلة، والحوادث الهامة كالثورات والمعارك، ودور بعض العائلات والطرق الصوفية، ولا نكاد نجد تاريخا لحروب الامير عبد القادر، ونزاع الحاج احمد باي مع خصومه في الزيبان، وحوادث جرجرة، وثورات اولاد سيدي الشيخ، وثورة 1871م.. وغيرهاالا بالعودة الى كتابات (بيلامار–زيروكا–روبان–رين– ترومليي–دوماس–دونوفو)، وقد اعتمد هؤلاء في كتاباتهم على المصادر الاهلية في غالب الاحيان، وهذه المصادر على نوعين :

–مصادر مكتوبة: تتمثل في وثائق العائلات الكبيرة، عقود الملكية، مذكرات رجال العلم الجزائريين.

–مصادر شفوية: التي اعتمدوا عليها اكثر من الاولى، فقد جعلتهم يسجلون قصصا واحداثا مختلفة.

وقد ساعدت الادارة هؤلاء الباحثين بجمع ماتفرق من الوثائق العربية والتركية التي وجدها الفرنسيون عند دخولهم للجزائر، ففي هذه الوثائق معاهدات ودفاتر حساب، وسجلات عسكرية، وعقود واوراق ادارية،

ورغم ان اعمال هؤلاء الباحثين العسكريين تعتمد الجمع، ولاسيما من المصادر الشفوية والمشاهدات الشخصية، فانها قد تركت للمؤرخين اللاحقين ارضية يبدؤون منها خاصة فيما يتعلق بأحوال الجزائريين الذين لم يكونوا يعرفون عنهم الا القليل.

كان الغرض من انشاء الجمعية التاريخية لمدينة الجزائر سنة 1856م، البحث في تاريخ المستعمرة من العصور القديمة وحتى بداية الاحتلال الفرنسي، وقد ضمت الدراسات سير الاعلام وتاريخ القبائل والمعارك والحروب، وتطور المدن والحواضر والوقوف على اسباب انهيار الحضارات القديمة وتفسير العلاقات الاجتماعية التي سادت بين مجتمعات البربر كما اشتغلت ايضا على دراسة لغتهم وعاداتهم وانماط معيشتهم.

ثالثا: دوافع الضباط الفرنسيين لكتابة تاريخ الجزائر

-انطلقت جل كتاباتهم من مجرد تقارير دورية عسكرية او دراسات كلفوا بها في اطار اعمالهم اليومية ضمن وحداتهم العسكرية في الجزائر، والتي كانت تطالبهم بها الادارة الاستعمارية الفرنسية باستمرار.

-كانت اغلب هذه الكتابات عبارة عن مذكرات لهؤلاء الضباط بعد تقاعدهم من الخدمة.

ونظرا لكثرة وتواصل الثورات والانتفاضات الشعبية في جميع انحاء البلاد، وتجدد بعضها رغم اخمادها مثل ثورة اولاد سيدي الشيخ (1864-1880)، حاولت الادارة الاستعمارية والجيش الفرنسي ايجاد الحلول المناسبة للحد من انتشار وتواصل هذه الثورات قصد نشر الامن والسلم، لذلك حاول العديد من ضباط الجيش الفرنسي بالنظر الى خبرتهم في معالجة هذه الثورات تقديم النصائح والحلول للادارة الفرنسية من وجهة نظرهم، من خلال كتاباتهم التي ركزت على دراسة أسباب هذه الثورات من اجل تجنبها ومعالجتها مستقبلا.

رابعا: تفسير المقاومة الجزائرية خلال القرن 19م من خلال الكتابات الفرنسية

حرص الكتاب الفرنسيون المعاصرون والمحدثون ومعظمهم من الضباط والجنود على استبعاد البعد الوطني عن المقاومة الجزائرية ورجالها وقادتها، وعملوا على ربطها بالاسباب الاقتصادية والاجتماعية الصرفة حتى يفرغوها من محتواها ومن اهدافها الوطنية، فعملوا على الوصول الى النتائج التالية:

-ادعوا ان الجزائريين عنصريون متعصبون دينيا وعرقيا، ولا يمكنهم التعايش مع الاجانب الاوربيين المسيحيين، لذلك كانوا يثورون باستمرار ضدهم، ودليلهم في ذلك هو كثرة رجال الدين الذين يرتمون في هذه الثورات ويقودونها ويدعمونها، ويؤيدون زعماءها السياسيين والعسكريين، وهذا ادعاء باطل لان الجالية الاوروبية المسيحية كانت متواجدة في الجزائر قبل الاحتلال بقرون عديدة تعيش في امن وسلام وتمارس نشاطها الديني والاقتصادي بحرية طالما انها تحترم قوانين البلاد.

-ادعوا ان الجزائريين لايثورون الا عندما يشتد عليهم الفقر والجوع والعراء، اما عندما تتحسن اوضاعهم الاقتصادية فانهم يخلدون الى الهدوء، ويرضون بحكم الاجانب لهم واحتلالهم لبلادهم ومنهم الفرنسيون، وهذا يعني في نظرهم ان الجزائريين لا يثورون الا من اجل بطونهم الجائعة واجسامهم العارية، اما الفكرة الوطنية والدفاع الوطني فبعيد عنهم، وهو ادعاء استعماري تبناه معظم من كتب على ثورات الجزائر في القرن 19 وال20م، امثال (لويس رين، روبين، هيريبيون، بول ازان، فيرو، ترومللي، بيليسيي..)

-ادعوا ان معظم هذه الثورات ليست وطنية جزائرية، لانها اندلعت بسبب ايحاءات من الخارج من طرف قوة اجنبية، فاتهموا المقراني والحداد بعمالتهم للروسيين والالمان والدولة العثمانية، واتهموا الشريف بوشوشة وبن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله بعمالتهم للسنوسيين.. وغيرهم..

وكمثال على ذلك نذكر، الكتابات التي كتبها الفرنسيون عن الامير عبد القادر وهي كثيرة ولكنها لاتخرج في اغلبها عن الحط من دوره الوطني، وجعله شخصا متعصبا دينيا في البداية وصديقا لفرنسا في النهاية، وهذا الموقف يلخصه كتاب "بول أزان" المسمى "الامير عبد القادر من التعصب الاسلامي الى القومية الفرنسية"، ذلك ان اسناد دور المدافع الوطني للامير يبطل عمل فرنسا في الجزائر.

وكان نفس الحال مع زعماء عائلات اولاد مقران في مجانة واولاد سيدي الشيخ، واولاد المختار في المدية و...غيرهم حيث كان التركيز كبيرا على هذا الجانب، فنذكر مثلا "رين" وهو مؤرخ ثورة 1871م يؤكد دائما على الطابع الشخصي للثورات ويبعد عنهم العنصر الوطني، وهو ادعاء بطل لان الحقيقة تثبت ان هذه الثورات ليست لها مصالح شخصية وانما تحركها الفكرة الوطنية .